



احترقت قلوب أهل السنة في كل مكان على حال أهلنا في حلب، تقف الأوصاف عاجزة عن تجسيد حجم المعاناة والألم والشدة التي يقاسيها إخوتنا هناك، معاناة مستمرة من سنوات، بلغت أوجهها في هذه اللحظات حيث يعيش عشرات الآلاف تحت رحمة العصابات الإجرامية الإرهابية.

في هذا الواقع الموجع الدموي، يفتح جواله، فيكتب وهو مسترخ بكل بروءٍ

هذا ما كنا نحذرهم منه. هذه الحال التي ي يريد دعاة الفتنة أن تصل إليها بلادنا، هم يتحملون تبعه هذه الدماء والمفاسد التي حلت بالشام.

ويكتب آخر:

أن الموقف العاطفي ينبغي أن لا ينسينا الخطاب العقلي عن سبب ما حدث.

هكذا اختار مثل هذين أن يكون تفاعلهم مع هذا الحدث الذي هزّ وجдан الأمة من شرقها إلى غربها.

فالأولوية في الحديث يجب أن تتجه عندهما نحو السبب الحقيقى لهذه الكارثة، وعدم الاكتفاء بالتفاعل العاطفى معه.

هذا التعاطي البارد يقف وراءه خلل وانحراف في التفكير أوقعه في هذا الموقف النشاز، فهو ليس بالضرورة صادر عن هو فاسد، أو انعدام للتعاطف مع جراحات المسلمين، بل ربما صرح صاحب هذا الموقف – وهو صادق – أنه يرجو لو بذل كل

ما يستطيع للتخفيف عن مصاب أهلنا في حلب، إنما سبب هذا التعاطي البارد هو حزمة من الترتيبات الفكرية بنيت على أفهام وانحرافات في التفكير، فإعادة بناء المشهد، وتصحيح الصورة، وتقويم طريقة التفكير نافع جداً في تتبّه بعضهم على محل الخلل في مواقفه وأحكامه، وإلا سيبقى يحسب موقفه شرعاً وعلانياً ما لم يبين له وجه الخلل في التفكير.

سنشرح أوجه الخلل في هذا التفكير في ثلاثة عناصر مركبة:

- الخلل في مراعاة السياق:

فال موقف الآن هو موقف مصيبة عظيمة حلّت بأهلنا في الشام، تجمعنا بهم حقوق وثيقة وأواصر عميقة فـ(إنما المؤمنون إخوة). (ومثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكي عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)

يحتمّ هذا دعمهم بكل ما يمكن، والوقوف معهم في محنتهم، ونصرتهم، والدعاء لهم، لا يمكن مع هذا الحق العظيم في هذا الوقت إلا الانشغال بتبعات هذا الواجب، الحديث حينها عن ما تراه سبباً للمصيبة حالة من التفكير الفارغ، الذي يترك التفكير في واجب الوقت، وما يلزمـه من عمل، إلى السرحان في منطقة تفكير جديدة لا يناسبها السياق بتاتاً.

تخيل فقط حال من يعيش في حلب وهو يكتوي بآلام الحصار والجوع والقتل، وتلاحمه آلـة الموت تنهـش في لـحـمه، وتقطع جـسـدـ أـطـفـالـهـ وـنـسـائـهـ، وـهـوـ يـشـعـرـ بـعـقـمـ الخـذـلـانـ الـذـيـ اـجـتـمـعـ عـلـيـهـ مـنـ كـلـ جـهـةـ، ثـمـ يـجـدـ مـنـ يـقـولـ لـهـ: هـذـاـ مـاـ جـنـتـهـ يـدـاـكـ!

هـنـاـ يـحـقـ لـنـاـ أـنـ نـقـولـ إـنـ هـذـاـ مـوـقـفـ يـذـكـرـنـاـ بـحـادـثـ الـمـنـافـقـينـ الـتـيـ حـكـاـهـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ فـقـالـ عـنـهـمـ: (الـذـينـ قـالـوـاـ لـإـخـوـانـهـمـ وـقـدـعـوـاـ لـوـ أـطـاعـوـنـاـ مـاـ قـتـلـوـاـ).

ينزعـجـ منـ هـذـاـ التـشـبـيـهـ فـيـقـوـلـ: كـيـفـ تـشـبـهـنـاـ بـالـمـنـافـقـينـ، وـهـؤـلـاءـ تـخـلـوـاـ عـنـ نـصـرـةـ النـبـيـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ فـيـ الـجـهـادـ الـشـرـعـيـ الـوـاجـبـ، فـكـيـفـ تـشـبـهـنـاـ بـهـمـ وـنـحـنـ نـتـحـدـثـ عـنـ صـورـةـ لـيـسـتـ مـنـ الـجـهـادـ، بـلـ مـنـ الـفـتـنـةـ؟

وـهـنـاـ نـعـيـدـكـ مـرـةـ أـخـرـىـ إـلـىـ خـلـلـ التـفـكـيرـ، فـإـنـكـارـنـاـ عـلـيـكـ لـيـسـ لـأـنـكـ تـقـولـ الـثـورـةـ مـرـفـوـضـةـ، وـأـنـهـ تـؤـدـيـ إـلـىـ مـفـاسـدـ، فـلـاـ مـعـنـىـ لـأـنـقـوـلـ: أـنـ أـتـحـدـ عـنـ جـهـادـ غـيـرـ مـشـرـوـعـ، وـالـآـيـةـ تـحـدـثـ عـنـ جـهـادـ مـشـرـوـعـ.

إنـماـ وـجـهـ الشـبـهـ: أـنـ هـؤـلـاءـ الـمـنـافـقـينـ تـرـكـواـ الـوـاجـبـ عـلـيـهـ مـنـ نـصـرـةـ إـخـوـانـهـمـ، وـتـعـلـلـواـ عـنـ ذـلـكـ بـأـنـهـمـ نـصـحـواـ وـلـمـ يـسـمـعـ لـهـمـ. وـأـنـتـ تـمـارـسـ ذاتـ الدـورـ حـينـ تـرـكـ الـوـاجـبـ عـلـيـكـ مـنـ نـصـرـتـهـ بـقـدـرـ مـاـ تـسـتـطـعـ، إـلـىـ الـحـدـيـثـ عـنـ السـبـبـ الـذـيـ تـرـاهـ قـدـ أـدـىـ بـهـمـ إـلـىـ هـذـاـ الـحـالـ!

إـذـنـ، السـيـاـقـ مـخـتـلـفـ، فـمـوـقـفـكـ مـنـ الـثـورـةـ وـمـاـ يـتـعـلـقـ بـهـاـ كـلـهـ لـاـ عـلـاـقـةـ لـهـ بـمـاـ يـجـريـ الـاـنـ فـيـ حـلـبـ، نـحـنـ الـاـنـ أـمـامـ وـاقـعـ جـدـيدـ وـتـحـديـاتـ ضـخـمـةـ تـفـرـضـ مـوـاـفـقـ وـتـزـامـنـاتـ بـعـيـدةـ جـدـاـ عـنـ مـوـقـفـ النـظـريـ مـنـ حـكـمـ الـثـورـةـ شـرـعـاـ، فـاـسـتـجـارـ المـوـقـفـ الـنـظـريـ فـيـ الـوـاقـعـ جـدـيدـ بـسـيـاـقـاتـ الـمـتـغـيـرـةـ خـلـلـ فـيـ التـفـكـيرـ.

وـمـرـاعـاـتـ السـيـاـقـ لـيـسـ حـاجـةـ هـامـشـيـةـ، أـوـ فـضـلـاـ فـيـ النـظـرـ، بـلـ هـوـ مـنـ الـوـعـيـ وـالـإـدـرـاكـ الـوـاجـبـ، فـمـنـ لـاـ يـرـاعـيـ السـيـاـقـاتـ فـيـ أـقـوالـهـ وـأـفـعـالـهـ فـلـقـصـورـ فـيـ عـقـلـهـ، فـحـينـ يـصـرـخـ بـيـ إـنـسـانـ مـنـ بـيـتـهـ يـشـتـكـيـ تـسـلـطـ الـلـصـوصـ عـلـىـ حـرـمـاتـهـ، وـتـعـدـيـهـمـ عـلـىـ حـقـوقـهـ، فـمـنـ الـحـقـ وـالـسـفـهـ أـنـ أـحـدـقـ النـظـرـ فـيـ مـذـكـرـاـ إـيـاهـ بـأـنـيـ سـبـقـ أـنـ حـذـرـتـكـ أـنـ لـاـ تـفـتـحـ الـبـابـ فـيـ اللـيـلـ، وـأـنـ لـاـ تـأـخـرـ فـيـ الرـجـوعـ، وـأـنـ تـفـعـلـ ثـمـ تـفـعـلـ!

نعمـ، لـوـ كـانـ الـأـمـرـ فـيـ سـيـاـقـ بـحـثـ عـلـمـيـ مـثـلـاـ، أـوـ فـيـ سـيـاـقـ مـنـاقـشـةـ مـوـضـوـعـ الـثـورـةـ، فـإـيـرـادـ الـمـصـائـبـ الـتـيـ حـلـتـ كـنـماـنـجـ

لتقوية الموقف النظري لا إشكال فيه، ويبقى من الحاجة والبراهين المعتبرة، وعلى من يخالف أن يواجهها بالحججة والبرهان، فمن لا يفرق بين هذا السياق، والسياق الذي ينشر فيه تغريداته الباردة فعنده مشكلة معيبة في طريقة التفكير!

وليت الأمر وقف عند هذا، اللافت أنه ليس ثم سياق يستدعي الحديث عن دعاة الفتنة، وخطر التحرير والتورات، فلو أننا مثلاً أمام مطالبات جديدة تدعو إلى الثورة في بلدٍ ما فأراد أن يحذر أهل هذا البلد وينصحهم لقنا موقف له اعتباره، وسبب يستدعي الحديث.

لكن الواقع أنه لا وجود لمثل هذا الأمر الآن، إنما هو استحضار لمواقف سابقة، إذن ليس ثم حاجة تستدعي استحضار موضوع تراه سبباً، فالتعليق عليها في محن إخوانك هو توظيف واستغلال للواقع لأجل خصومات وصراعات فكرية، والعاقل الذي يخاف الله يترفع عن هذا المتنزلق، فبإمكانك أن تتحدث في مثل هذه الموضوعات لاحقاً، إخوانك يحتاجون مد العون الآن، قضيتك مع فلان وفلان من الدعاة والمشايخ، ومشكلتك مع الجماعة الأخرى، وتحليلاتك الخاصة في أسباب الثورات ومن قام بها ومن وراءها...الخ.

ما يزال في العمر سعة تفسح لك أن تعبر عن كل ما في مكنونات صدرك، فإن تأبى إلا هذا الوقت، فإن أحسنا الظن فليس أمامنا إلا عقل قاصر وتفكير مختل!

لا يرى في غمرة هذه الخصومات سبباً لما حل بآهلنا من مصائب إلا ما وقع من مظاهرات قبل سنوات، حسناً، لماذا لم يفكر أن سبب ما حل بهم هو خذلان أهل الإسلام لهم وتفريطهم في حقوقهم وتضييعهم لقضيتهم، وأن ما يحل بهم سيكون وبالاً على غيرهم، فهذا السبب أقرب وأولى بالاعتبار من ذلك السبب الذي يتعللون به، لكن الخلل في التفكير يبقى مقتضاً على زاوية معينة لا يتجاوزها!

وبسبب خلل التفكير، لا يتقطن الشخص إلى أن ما يذكره قد يكون آثياً على ضد مقصوده، فإذا كان البلاء والمصائب التي حلت بإخواننا هي بسبب المظاهرات فيكون هذا دليلاً على أنها فتن، فماذا لو أن الواقع انقلب في الشام -بلطف من الله- فأصبحت الأمور خيراً مما كانت عليه، وتفكك النظام، وعاش الناس في نظام خير مما كان، هل يؤخذ منه عبرة على أهمية الثورات ونجاحها؟

فهذه الطريقة في البرهنة على فساد الثورات ربما لا توصلك إلى مرادك، وستكون محل جدال وخصومات عقيمة تشغلك عن واجب نصرة إخوانك في محنتهم.

- الخلل في فهم أسباب الثورة:

تعتمد طريقة (لو أطاعونا ما قتلوا) على معادلة سطحية جداً في فهم سبب قيام الثورات وتفسير ما سمي بالربيع العربي، فهو تحرير من مجموعة من المشايخ والدعاة أدى بهم إلى هذه الفتنة، فيجب التحذير من هذه الفتنة التي تسببت في هذه الفتن والدماء، وكل ما يجري من حولهم من مصائب لا ينظرون إليه إلا من هذه الزاوية الضيقة.

عندنا حزمة كبيرة من التحليلات السياسية حول الأسباب التي حركت هذه الموجات الغاضبة المطالبة بالتغيير، وكل هذه التحليلات تؤمن بأن الوضع معقد متشابك مركب لا يمكن أن يرد إلى عامل واحد، بغض النظر عن هذه التفسيرات والتحليلات فتبقى محل اجتهاد ونظر وما تزال تدور في جانب التحليل المبني على الظن والمقارنة، وقد تظهر الأيام القادمة ما يقوى بعضها على بعض، المهم أن ثم اتفاقاً على تعدد المشهد.

فهذه المعادلة السطحية في الربط المباشر بين خطاب معين وبين الثورات عدا ما فيه من سطحية في المعالجة، هي أصلاً

تتحدث عن شيء بعيد جدًا عن مجريات الواقع.

فالثورات التي وقعت في بعض البلدان العربية لم تقم بسبب تحريض من مشايخ، ولا بسبب تغريدات كتبها فلان، أو خطبة قالها آخر، أو مقطع نشر لثالث، فالسعي في جمع مثل هذه المواقف هو إنها للفكر في منطقة خاطئة.

فالظاهرات تحركت واستعلت في الشارع قبل أن يعرفها هؤلاء، بل الجميع كان مصدوماً من تسارعها وتصاعدها، بل وعامة الإسلاميين في تلك البلاد لم يشاركوا في الظاهرات إلا متأخرين، وكانت التيارات العلمانية واللبرالية تعيب عليهم أن قفزوا على الثورات، لأن ثم قناعة أن المشاركة كانت متأخرة، بغض النظر عن هذه التفصيات، يبقى أن التعاطي كان متحفظاً عليها من البداية من إسلامي تلك البلدان، فكيف يتهم أن مشايخ بلدان أخرى هم من حرضوا تلك البلدان على الثورات وتسببوا فيها فيجب التحذير منهم وتحميلهم مسؤولية ما حصل!

بل إن كان ثم تأثر بأصوات شرعية فهي من أصوات تلك البلدان، فلم يكن ثم شخصيات يرجعون إليها أساساً من خارج بلدانهم.

إذا فهمت هذا استطعت أن تضع تغريدات ومقاطع وتعليقات من أيدي هذه الثورات في سياقها الطبيعي، لا أقول لك أحكم عليها بالصحة، إنما افهمها كما هي، وانطلق في التفكير بطريقة صحيحة، مما حصل هو تفاعل مع حدث، لم يكن خاصاً بالمشايخ، بل هو تفاعل جميع طبقات الناس في العالم العربي والإسلامي كله، شارك الجميع من شباب وفتيات ومشايخ ودعاة ومتقين وفلكيين وسياسيين واقتصاديين ورياضيين وإعلاميين.. عدّ ما شئت، فالحدث كان حدثاً ضخماً تفاعلاً معه الجميع، وأكثر التفاعل كان مستبشراً وداعماً ومؤيداً، فإن كنت تتعجب أن هذا التفاعل هو سبب الفتنة، فيجب أن يتحمله الجميع، فقل كلام أكثر الناس وحديث عموم المجتمع هو سبب الفتنة.

التفكير بهذه الطريقة لا يعني أن تلغي موقفك من الثورة وحكمها. لا، أريدك فقط أن تفك بطريقة صحيحة، لا يختل عنك ميزان التفكير فتظن أن موقفك شرعي معتدل بمجرد أن تستدل بنصوص شرعية وتستند إلى أقوال فقهية، فيجب أن تضع القضايا الشرعية في ميزانها الصحيح، لا تخلطها بتحليلاتك وأفهامك الخاطئة فتتسبب هذا في بغي وفجور وظلم.

حين يكتب أحدهم مثلاً عن حادثة الشام فيقول: هم في عنق فلان وفلان وفلان ممن حرضهم على الثورة.

فمن يقرأ هذا الكلام وهو لا يعرف عن الواقع شيئاً، فسيفهم أن هذه الأسماء الثلاثة هي التي حركت الناس من بيوتهم، وخدعوهم، ثم دفعوهم نحو المواجهة.

تصدم حين تعلم أن غاية الأمر لا يعود مجموعة تغريدات أو مقاطع، فيها كلام عن موضوعات معينة متعلقة بالظلم والحربيات والحقوق ومطالبات الشعوب، ونحو هذا الكلام قرأه عدة مئات من الناس بعد قيام الظاهرات بشهور!

هذا قصور عقلي فاضح، ولا يعود الاستدلال بهذه الطريقة إلا توظيفاً لهذه المصائب في سياق خصومات فكرية مع شخصيات معينة، من المعيب أخلاقياً أن يجعل هذه المصائب فرصة لا تعوض للحط من شخصيات محددة وتشويه جماعات وأفكار معينة. بإمكانك مناقشتها والرد على أصحابها لكن بميزان أهل السنة والجماعة ميزان العلم والعدل، فننقد ما نراه من تجاوزات من دون بغي وفجور في الخصومة!

إشكالية هذا القصور أنه لا يعرف من أسباب الثورة إلا تحريض المشايخ!

فكانه ليس ثم أسباب موضوعية هي التي حركت الشارع للمظاهرة، وإنما هي دعوات موبوءة خدعوهم واستغلت عواطفهم

بينما العاقل يعرف أن المظاهرات -بغض النظر عن موقفه الفقهي منها- لم تقم إلا بسبب مظالم عميقة، وحقوق منتهكة، وتاريخ طويل من الفساد والانحراف والتعديات عمّق في نفوس الناس من معانٍ القهر والظلم والنفور ما تفجر مع أدنى فرصة، فإذا كنت فعلاً لا ت يريد قيام الثورات فالموقف العقلي الصحيح أن تركز معالجتك على الأسباب الحقيقة وتنظر في كيفية تخفيفها، لأن توقف حركة تفكيرك فتعيد الدوران في منطقة محددة، غاية ما فيها أنها ستكون موظفة لهذه الأسباب المؤثرة.

سيعرض بعضهم سريعاً: ولكن الواجب الشرعي في التعامل مع المظالم والانحرافات لا يكون بهذه الطريقة، ثم يبدأ في ذكر النصوص وكلام بعض أهل العلم.

و هنا يعود الخلل في التفكير في العمل، فنحن نتحدث عن السبب لما حدث وليس عن الحكم الشرعي له، فعدم التمييز بين سياق الحديث عن الأسباب وسياق الحديث عن الأحكام خلل في نمط التفكير، فمن يضع ماله في الشارع بلا حفظ سيعرضه للسرقة، لا تتعرض على هذا بأن السرقة حرام، لأن الحديث ليس عن حكم السرقة بل عن سببها، وكذلك هنا، فالنقاش ليس في حكم التعامل مع المظالم، وإنما في تأثيرها على الاحتجاجات والاضطرابات والثورات، بغض النظر عن حكمها الشرعي.

وليتنا وقينا عند هذا الحد فاكتفينا فقط بالتوسيع في تحويل هذا الخطاب فوق ما يحتمل، بل تبع ذلك التوسيع في مفهوم التحرير، فأصبحت دائرة واسعة لا يعرف أحد ما حدودها فكل شيء ممكن أن يدخل فيها، وحجم التبعية أيضاً عليها واسع جداً لا يعرف عمقه ولا منتهاه، فهي وصف عائم ذو تبعات عائمة، وربما حكم على تغريدة عابرة كتبت في توين قبل سنوات تتحدث عن موقف معين بلغة هادئة، فتبقى مصورة تداولها الأيدي كإدانة على تحويل صاحبها تبعية الفتنة والمصائب التي حلّت!

بالتأكيد، لا يفهم من هذا عدم نقد المشايخ أو الدعاة، ولا أن أقول لا نتحدث عن موضوع التحرير على الثورات، إنما المقصود هو التحاكم إلى ميزان الشريعة: "العلم والعدل". أن تضع هذا الخطاب في وضعه الطبيعي، تحاكمه إلى تأثيره الحقيقي، تدقق في طبيعة تناوله للموضوع، تستحضر مستنداته الشرعية، ثم تحاسبه بناءً على ذلك، لأن تاريخ دماغك من عباء التفكير فتكفي بالمعادلة السريعة: خطاب تحرير ويتحمل كل شيء!

- الخلل في استيعاب المعطيات الجديدة:

حين نتحدث عن الثورات الأخيرة فمن الضرورة التي تغيب عن بعض الناس إدراك أن ثم متغيرات جديدة تلت هذه المظاهرات توجب نظراً واجتهاً جديداً.

فحين تتحدث عن حرمة المظاهرات قبل وقوعها، أو مع بداياتها لما فيها من المفاسد فهذا سياق صحيح، ونظر شرعي مقبول، لكن هذا الواقع قد تغير لاحقاً، فما عادت الصورة الآن صورة مظاهرات تطالب بتغيير النظام فنقول بتحريمهها، بل تغير الوضع تماماً، فأنتج الواقع معركة جديدة بين فريقين، لا يمكن حينها أن تكون المعالجة بطريقة أن المظاهرات حرام أو حلال، بل أنت أمام صورة جديدة توجب نظراً مختلفاً.

فقبل قيام الثورة السورية، من المقبول جداً أن تحرم التظاهر ضد النظام مراعاة لما يتربّ عليه من مفاسد، وحفظاً لدماء الناس وحقوقهم، لكن حين يخرج الناس ولا يسمعون لك، ثم تنشق المدن عن النظام، وتبدأ المعارك، فأنت الآن أمام واقع جديد مختلف جذرياً عن الحالة التي كانت قبل سنوات، فأنت أمام صراع بين نظام وشعب، نظام تعرف حاله وإجرامه

ومقاصده ومن يخدم، وشعب له مطالبه وحقوقه، القضية لم تعد مظاهرات ومفاسد، فاستحضار النقطة الأولى في واقع متغير جداً قصور عقلي وفقيهي كبير.

بل لم تقف المتغيرات عند هذا الحد، فالقضية لم تعد معركة بين نظام فاسد وشعب يريد الحرية والحقوق الشرعية، فالمعركة الآن في الشام معركة ضد وجود أهل السنة وهميتهم، المصيبة التي تحل بحلب هي مصيبة على بقية العواصم العربية، وانكسار الثورة الشامية انكسار للأمة جمياً.

فالذى حصل في موضوع الثورات أن المتغيرات اللاحقة أنتجت واقعاً جديداً يحتم نظراً جديداً، فلا يجوز أن تبقى متسلماً في زمن اللحظة الأولى والدنيا تموح بالمتغيرات!

فعدم إدراك هذا المتغير أوقع الخلل عند فريقين:

- فريق يرى دعم الثورات العربية بعد قيامها، ويرى أن دعم الشعوب أولى من الوقوف مع النظم الفاسدة، فحتى يكون قوله منسجماً رأى ضرورة أن يقال بمشروعية المظاهرات الأولى، وترتب عليه أن شنع على من يرى حرمتها، وبالغ في الحط عليه ونسبة إلى المعايب، بل وتوسعوا إلى نقد الموقف الفقهي المعروف في حكم المتغلب لأنهم يرون أنه سيؤول إلى تحريم المظاهرات التي يرون ضرورة دعم الشعوب في مطالبتها.

- وفريق يرى عدم الالتفات إلى هذه الثورات، ولا نصرتها، ولا حتى مجرد الدعاء لها بالنصر والتمكين، لأنه يرى أن المظاهرات محرمة، فما يتبعها لاحقاً هو محرم تبع لها فلابد أن يدعم أمر نشأ عن محرم.

وكلا الطرفين واقع في غلط منهجي بين، وهو عدم إدراك المتغيرات الجديدة التي طرأت على الواقع بما يوجب تغيير الحكم، فالحكم على المظاهرات شيء، والحكم عليها بعد قيامها وانتشارها وظهور معطيات جديدة شيء آخر، فالحكم على الواقع الجديد يجب أن يبني على مراعاة له وليس أن يتوقف التفكير فيه عند النقطة الأولى!

وثم طرف آخر يليس لكل حالة متغيرة لبوساً خاصاً، ففي أول أحداث الثورات في غمرة الحديث عن الحريات كان متفاعلاً معها كما تفاعل كثير من الناس، وكان مشاركاً في الحديث عن أهمية المظاهرات والتغيير السلمي، والحريات، و... وحين تقلب الأمور وضعف وضع الثورات ليس جهة الحكم والعقل وبدأ يقرأ الأحداث بأثر رجعي فأصبح يلوم الآخرين ويحملهم مسؤولية ما حدث! ولو قدر أن تقوى الثورات ويتحقق لها مكاسب جديدة فسيعود بموقف جديد ويلوم الآخرين!

إذا فهمت هذا عرفت حجم الغلط والخلل الفكري الكبير عند من يتحدث عن مصائب إخوتنا في الشام بلغة "ألم ننهكم عن هذا"!

فالواقع الشامي تبدل، فحكمك على الواقع الموجود بناءً على حكمك الفقهي الأول على المظاهرات قصور فقهي في النظر، فالواقع تغير بعد المظاهرات، بل تغير وتقلب مرات كثيرة، فعلى أي حال حكمت على المظاهرات الأولى، فأنت الآن أمام الواقع الجديد قامت فيه ثورة جهادية تريد إزاحة نظام طاغي أهلك الحرج والنسل، فالواجب هو نصرة هذه الثورة ودعمها والوقوف معها، وما يحصل عليها من محن ومصائب هو من البلاء والتمحيص الذي نرجو لهم به رفعة الدرجات، وأن يجعلها شهادة في سبيله ترفع بها درجاتهم، وأن يجعل عاقبتها نصراً وتمكيناً لهم.

فأياً ما كان السبب الذي أثار الحرب، الواجب هو المساهمة في جعل العاقبة خيراً لهم، ونصراً وتمكيناً، وليس التعلي على ما يؤدي إلى جعلها فساداً وضرراً.

العدو قد يصل إلى خطأ أو ظلم صدر من مسلم ، فيعتدي على المسلمين ، وينتهي حقوقهم ، فالواجب عندها حينئذ هو الدفاع عن حرمات المسلمين ، والوقوف ضده ، فهو واقع جديد يختلف عن الواقع الأول الذي أثار العدو ، ولا يعني هذا أن لا تحدث عن السبب والخطأ الأول ، لكننا يجب أن ندرك أن الواقع الذي تبع ذلك هو واقع جديد يختلف عنه قبل وقوع السبب.

واقعة تاريخية:

تحكي كتب التاريخ أن سبب اجتياح التتار لبلاد المسلمين هي مظلمة وقعت على بعض تجار التتار من قبل الحاكم المسلم خوارزم شاه ، تبع ذلك أحداث أدت لاكتساح العالم الإسلامي ، تبقى هذه القصة عبرة على فداحة الظلم ، لكن أهل الإسلام لم ينح بعضهم على بعض لأن هذا بسبب أفعالكم ، بل تعاملوا مع واقع جديد بحسب معطياته وإمكانياته.

وهذه قضية عقلية تغيب في خضم هذه الخصومات.

وهذا التمييز حاضر عند أهل الفقه والعقل لا يخفى عليهم ، فهم يقولون: يحرم الخروج على الناس لأجل الحصول على السلطة ، ومن يفعل هذا فهو باع ظالم معتقد ، لكنه حين يتمكن ويستبد بالأمر ولا يبقى ثم منازعة له فإنهم يقولون بعدم الخروج عليه لأننا أمام واقع جديد ، يحصل هنا ذات الخل - في عدم التمييز بين المواقف مع اختلاف المعطيات - عند فريق آخر ، فيقول: كيف نقول بصحة حكمه وهو قد وقع في ظلم ومحرم! يقول بعضهم معياراً بها الفقهاء: خرج لصاً ظالماً ثم صار حاكماً شرعاً!

وهذه مغالطة عقلية تقبلها بعض العقول لحسن صياغتها ولا يتفطن لها فيها من خلل فكري ، فخروجه في الأول واقع مختلف عن اعتبار حكمه في الواقع الثاني ، فلكل حالة حكم ، فنحكم بحرمة فعله في الأول لاعتبارات شرعية ، وفي الأخرى نحن أمام واقع جديد ننظر فيه باعتبارات أخرى ، والمقصد من النظر في كلا الحالتين هو مراعاة مصلحة الناس ودفع الضرر عنهم.

لهذا تجد أحكام الشريعة مبنية على علل ، متى ما وجدت تعلق الحكم بها بغض النظر عن السبب الذي أثارها ، فحقوق المسلمين بعضهم على بعض مرتبطة بعلل ، فإذا مرض فزره ، وإذا جاء فأطعمه بغض النظر عن السبب الذي أحدث له الجوع والفقر ، والكافر الصائل المعتمدي يجب صده بغض النظر عن سبب صياله ، لأن السبب لا يلغى تحقق العلة واستحقاق الفعل المشروع ، فاستحضار السبب لتعطيل الواجب المحموم في الواقع الجديدة خلل في التفكير.

هذه نماذج كاشفة لصور من الخل في التفكير في هذه الحادثة، خلل في:

- عدم مراعاة السياق.

- وضعف الوعي بأسباب الثورات المعاصرة في بعض البلدان العربية.

- وقصور الإدراك لطبيعة المتغيرات الجديدة.

عوامل تتسبب في كسر ميزان العلم والعدل عند الإنسان ، فيقع بسبب ذلك في فوضى من البغي والظلم والفجور في الخصومة ، وتضييع بسببه حقوق كثيرة ، وتهدر أوقات في جدالات عقيمة مع تقصير في الواجب الشرعي ، ويبقى الخل في التفكير هو عامل علمي مؤثر يتسبب في تعميق هذه الإشكالات عند بعض الناس ، فهو يتمسك بمعنى شرعي معين لكنه بسبب هذا الخل يقع في أخطاء عدّة.

مع هذه الفوضى الفكرية التي أحدثها الخل في التفكير لا معنى لأن تتعلّل في تخفيف شناعة النتيجة:

بأننا نريدأخذ العبرة والعظة مما حدث.

فالاعتبار أمر شرعي مهم، لكنه في سياق الاعتبار، وليس في سياق تضييع الواجبات، وإيذاء إخوانك، والاشغال بالخصوصيات، وكسر الموازين، فالاعتبار في الواقع هنا يجب أن يكون لإشكالية الخلل في التفكير على ما يحدث من بغي وفجور وتضييع للواجبات!

يقابل هذا الخلل فريق آخر، رأى حجم البغي والفجور عند الفريق الاول، ورأى أنهم يستندون إلى نصوص وتعليلات ومصالح شرعية، فلم يلتفت لها أبداً، وأصبح يحكم على أي نظر آخر بأن وراءه دوافع وأهواء منحرفة، وهو مقابلة الخلل بخلل مثله، وكلا طرفي قصد الأمور نميم.

سيسلم من هذا من رزقه الله فقهاً وعقلاً، فبهما ينضبط ميزان العدل والعلم، فلا يطغى الميزان عند الإنسان بسبب تمسكه بشيء هو في أصله معنى شرعي صحيح، فيغره تمسكه بجزء من الشرع ثم يظن أن كل ما يصدر منه هو من الشرع، وأنه تطبيق لأصل شرعي، بل واتباع لمنهج السلف، والتزام بجادة أهل السنة يستطيع بها على عباد الله، ويترخص بسببها في انتهاك محرمات وتضييع واجبات، ولا يدرى في غمرة خلل الفكري حجم الكوارث التي يحملها من حيث لا يشعر.

حفظ الله أهلنا في الشام، ونصرهم، وانتقم لهم من بغي عليهم، وحفظهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيديهم وعن شمائهم، ولطف بنا وغفر لنا تقصيرنا وتجاوز عنا.

حساب الكاتب على تويتر

المصادر: